مقدمة

تطور التفوق الأبيض

كنت دائم الانبهار بصور جدي لأبي بوصفه محارباً صحراوياً. لقد كان شيخاً بدوياً عابراً مسافات برونزية شاسعة على ظهر جمل أحادي السنام مع كوفيته ذات اللونين الأحمر والأبيض مثبتة فوق رأسه بعقال أسود، يتطاير ذيلها الخلفي ويمتد سابحاً في الهواء إلى الخلف لدى تزايد السرعة. ما أكثر ما كنت أمد يدي للمس خنجره الذهبي المطعم بعِرْق اللؤلؤ المشدود إلى خاصرته بحزام مصنوع من ورق البردي. بالكاد كانت أصابعي تدغدغ ذيل جلبابه الرمادي في أثناء مروره طائراً؛ إنه ملك الصحراء في مهمة سرية.

نعم، كان هذا هو جدي، من منطقة البلقاء، بدوي مسيحي من قبيلة المعرية. (كثيراً ما كان أبي يقول لي وأنا طفل: "لم نهتد إلى المسيحية على أيدي البيض. المسيح هو الذي عمّد السلايطة"). عاش إلى ما بعد التسعين من العمر، راحلاً قبل لقاء آخر أحفاده الذي لم يستطع التواصل معه قط والذي كان يعيش خلف قارتين.

غير أنني كنت أعرف جدي، مع ذلك، حين كنت صغيراً. كنت أراه في الأفلام؛ كان له برنامجه الخاص على التلفزيون. عند الساعة السادسة من كل مساء، كان على الشاشة، في لبنان، فلسطين، ليبيا، العراق، مهدِّداً واعظاً بالحقد والكراهية. اضطلع

بعشرة أو أحد عشر دوراً بارزاً في **لورنس العرب**. كان جدي إرهابياً، حالماً، خادماً مطيعاً.

اكتشفت مبكراً أن الجميع في عشيرتي كانوا، في الحقيقة، مبتلين بنزعات عنفية متأصلة. لم يكن ألطفهم، كما علمني التلفزيون، إلا لا عقلانياً أو زير نساء نهم. ترعرعتُ جيلاً عربياً - أمريكياً أول، مفطوراً - مثل كثيرين من أطفال الأقليات في الولايات المتحدة - على كره جوهر وجودي بالذات. وتلك الكراهية ما لبثت أن تبلورت لتصبح كبرياء مكثفاً. تعين علي أن أنتظر سنوات قبل أن أبادر إلى فعل ما بوسعي لتفكيك المنظومة التي تدفع أطفال العرب الأمريكيين إلى الإحساس بالرعب من أسمائهم، من لكنة آبائهم وأمهاتهم، ومن ألوان بشرة أفراد أسرهم.

ومما يدعو للأسف، أن الثقافة الشعبية لم تكتف بتعزيز كره الذات الطفولي. فقد نشأت مفعماً بالعنصرية. لن أكون صادقاً إذا زعمت أن تجاربي الطفولية تمثل نظيرتها لدى جميع أبناء الجيل الأول من العرب الأمريكيين. كبرت في زمن مغاير لزمن صغار اليوم وفي مكان مختلف كثيراً دون شك. ففي الهامش الأبالاشي، على الحدود بين فيرجينيا وفيرجينيا الغربية، تصارعت مع عنصرية معادية للعرب معبِّراً عنها بقدر لئيم من الجدية. لم يكن بوسعي أن أنتظر الذهاب إلى الكلية، حيث كنت أظن أنني كنت سأتحرر من تمييز البلدة الصغيرة التي كنت أمقتها كثيراً. أتفهم الآن، بنوع من الرضا الحلو - المر، أنني لن أتحرر كلياً من الحقد الذي عشته طفلاً ما لم أرحل عن الولايات المتحدة. ومع أن طفولتي ليست،

بالضرورة، كناية عن أي شيء، فإن عنصرية آبالاشيا لم تكن فريدة. إنها خلاصة مصغرة ومكثفة لعنصرية أمريكية طاغية وعريقة اقتصر دور أهل آبالاشيا على تحويلها بما يتناسب مع الفرادة الثقافية للمنطقة.

أتذكر كل حادثة عنصرية بوضوح يثير غضبي على نحوٍ صحي. ذات مرة، وأنا في الثامنة من العمر، منعت من دخول بيت أحد الجيران لاستخدام دورة المياه؛ لأن "الهنود لا يتبولون". في مناسبة أخرى أرادت أم صديق، شخصية مهيبة دائمة ارتداء قميص نوم مزركش بحشد من الحيتان الصغيرة الخضراء، أن تعرف سبب "إدمان عائلتي على مثل هذا الصنف الخبيث من التغوط". ربما لم يكن شيء متفوقاً على ما فعله جارنا الأصلع الأكتع حين أقام سياجاً في الجانب العائد إلينا من الباحة. آنذاك كان السياج ممتعاً لعائلتي ببشاعته الصارخة ورمزيته المنحرفة. ومع أنني مازلت أتذكر السياج (وهو باقٍ حيث هو) بشيء من المتعة، فإنني أنظر إليه الآن بوصفه أقل لطفاً؛ لأن من الواضح أنه يمثل الموقف العنصري العملي نفسه الذي ابتُلي به المجتمع الإسرائيلي الذي أيد "الجدار الأمني" في الضفة الغربية والذي يشكل مصدر إلهام لسائر الحواجز دائمة الحضور المشادة في طول الولايات المتحدة وعرضها لتهميش غير المرغوبين من الفقراء والملونين (من كليهما عادةً) بالضرورة. مرة، وأنا عائدٌ من الكلية لقضاء العطلة الصيفية، ذهبت إلى مكتب أبي في الكلية المحلية لاستخدام الإنترنت. كان ذلك بعد أسبوع الامتحانات مباشرة، ولم يكن أبي ملزماً بالعودة إلى العمل منذ إنجاز تسجيل الدرجات. لدى اقترابي

من المكتب شاهدت ملاحظة ملصقة على الباب. نزعتها لتركها على مكتبه، غير أنني لم أفعل حين رأيت عبارة "عد إلى بلدك أيها الإيراني العاهر!" التي تفوح منها تلك الرائحة الأمريكية الخالصة المثقلة بالجغرافيا.

لم تكن الأمور أفضل كثيراً في المدرسة. بقيت شديد الحساسية إزاء بشرتي السمراء منذ البدايات الأولى لأنها كانت مثار انبهار لدى الطلاب الآخرين الذين ما لبثوا تدريجياً، مع تعرضهم لعملية غسيل الأدمغة بخرافة الاستثنائية الأمريكية، أن قلبوا الانبهار إلى احتقار. ولأن أمي النيكاراغوية ذات الأصول الفلسطينية كانت تدرِّس مادة اللغة الإسبانية في المدارس المتوسطة والثانوية المحلية، فقد كنت أتعرض لسيل متواصل من الإهانات حول الريوغراندي، القفز فوق الحدود، البقول المعاد قليها، والكسل. والطلاب الأكثر اطلاعاً كانوا يعيرونني بركوب الجمال، وتفجير المدرسة. ومع وصولي إلى المرحلة الثانوية أقلعت عن محاولة التصدي؛ ما من طفل أجنبي يفوز في شجارات المدارس الأمريكية.

لا أستطيع أن أتذكر حادثة واحدة، من روضة الأطفال إلى الصف الثاني عشر، تَدخَّل فيها معلم لمنع الآخرين من إهانتي. بل أحياناً كان المعلمون في الحقيقة هم الذين يمارسون العنصرية بقسوة لا تقل عن قسوة الطلاب. ذات مرة ألمح أحد معلمي الصف الأول إلى ورق العنب الذي زودتني به أمي مشبهاً إياه بـ "قطع الروث" أمام حشد من الأطفال الساخرين. معلم آخر عنَّفني قائلاً: "لا تفعل ذلك ثانيةً، أيها الأجنبي اللعين!" الأمثلة الأخرى أقل صراحة:

التعرض للإرسال إلى مكتب المدير عدداً غير عادي من المرات؛ التعرض لعقوبات على أفعال لم تكن تتمخض عن أي عقاب بالنسبة إلى الآخرين؛ البقاء مرشحاً دائماً لتمثيل كل ما هو "أجنبي" أو "دولي".

لدى النظر إلى الخلف، لم تعد هذه المعاملة تصدمني، وهو أمر كان من شأنه أن يحصل في حينها لو أنني كنت قد حللت أجواء المدارس بدلاً من الإصرار على تجاهلها. مدرب كرة القدم في الثانوية، نجم محلي (وبالتالي أنموذج)، كان ذائع الصيت برواية "النكات الزنجية" على مسامع كل أبيض يتردد على مكتبه. في درس الأخلاق كان يقال لنا إن العالم غير منصف جراء التأثير الشنيع لوسائل الإعلام الليبرالية. معلمة ابتدائية كان زوجها قد قاتل في كوريا قالت لنا، نقلاً عن زوجها، إن الحرب كانت بالغة الصعوبة لأن "أولئك الناس لا يقيمون أي وزن للحياة. كانوا يرسلون موجات بشرية إلى الموت. لم يستطع الأمريكيون مجاراتهم". إنها البيئة التي أبقت المدارس مشحونة بقدر هائل من العنصرية.

المدارس في مسقط رأسي لم تتغير (عدد كبير من المعلمين مازالوا هم أنفسهم)، غير أني أشك في أن تكون أعداد كبيرة من المدارس في الولايات المتحدة موبوءة بمثل هذا القدر من العنصرية الصريحة. إلا أنني أعتقد أن العنصرية المضمرة موجودة في سائر مدارس البلاد. وهذا الاعتقاد مستند إلى واقع كون العنصرية المضمرة (والصريحة) موجودة في جميع قطاعات الولايات المتحدة ومناطقها. من المؤكد أن المعلمين ليسوا محصنين ضدها. صحيح

أنهم يتصدون لها ببطولة (مخاطرين بفقدان وظائفهم)، غير أنهم كثيراً ما يعززونها دونما وعي. وفي الحقيقة فإن العنصرية تتعزز باستمرار في بعض أكثر المؤسسات تحلياً زائفاً بالاعتدال في الولايات المتحدة. إن جزءاً كبيراً من تلك العنصرية موجه اليوم ضد العرب، رغم أنها ليست محصورة بهم.

أصل التفوق الأبيض

إن الجزء الأكبر من الإلهام الذي يمثله مشروع هذا الكتاب مستمد من تجربتي الخاصة بوصفي عربياً في الولايات المتحدة وإن لم أحاول كتابة سيرة شخصية. مثل عدد كبير من الأكاديميين، وجدتُني مهتماً خلال دراستي الجامعية بتأطير حياتي داخل قوالب اجتماعية ونظرية أوسع سعياً إلى فهمها على نحوٍ أفضل. وحين بادرت، أردت أن أفهم بقدرٍ أكبر من العمق سبب انتشار العنصرية في المجتمع الأمريكي. تعلمت من الوجود المجرد مدى الوحشية التي يمكن لعنصرية معاداة العرب أن تبلغها، غير أنني ما لبثت أن أدركت عبر الدراسة المعمقة أن العنصرية المعادية للعرب ظاهرة يمكن - من خلال وضعها في إطار النزعة الاستثنائية الأمريكية الشاملة - إرجاعها إلى أصل الولايات المتحدة بالذات.

مجدداً أقول: إن التجارب التي أعرضها تسهم في هذا الفهم. على الرغم من أنني عربي مئة بالمئة (وإن كنت من ناحية الأم ذا صبغة ثقافية إسبانية) لم أعش دائماً تجربة العنصرية المعادية للعرب أيام الشباب، ولا أعيشها دائماً الآن. جرى تحويلي، بدلاً من ذلك، إلى هندي، آسيوي وأمريكي، وأُقحمت في جميع القوالب

العائدة لهذه الجماعات. تعرضت أكثر من مرة لسؤال: "أبيض أم زنجي؟" .سمعت طوفاناً مرعباً من النكات المكسيكية. بل وقد أُلبست لقب داغو. ليست هذه الأمثلة جميعاً إلا نتيجة لبشرتي السمراء. وبدوري تعلمت، وأنا في سن مبكرة، دون الإفادة من أي تعليم رسمي، أن تجريد أي ظواهر اجتماعية مترابطة من سياقها حماقة ولاسيما حين تنبئ عن مفاهيم أمركة وأنماط خاصة من الغيرية التي نشأت خلال استيطان أمريكا الشمالية وتستمر بصيغ حديثة اليوم.

وبعد هذا الإقرار، كيف يمكن افتراض وجود عنصرية معادية للعرب وتحديد معالمها بعد ذلك. ليست هذه مهمة سهلة. من نواحٍ كثيرة تكاد أن تكون مهمة حمقاء. ومع ذلك فإنني أراها مهمة ضرورية. ومع أن عنصرية معاداة العرب مرتبطة بأشكال أخرى من العنصرية الأمريكية (بما فيها معاداة السامية)، فإنها تحتفظ، بالرغم من ذلك، بملامح محددة ذات علاقة مباشرة بالتفاعل بين العروبة والروح الأمريكية، خصوصاً مع شروع النظام الرأسمالي الأمريكي في الاحتكاك بموارد العالم العربي وثرواته. يتمثل أصل العنصرية الأمريكية بنوع من التزاوج بين قيم الكولونيالية الأوربية والتفاعل مع الزنوج والهنود (الحمر)؛ وأصبحت العنصرية ظاهرة أمريكية فريدة مع تطور العلاقة بين المستوطنين البيض ومالكي العبيد من جهة وأولئك الذين أخضعوهم من جهة ثانية من استعراض أحادي الجانب ظاهرياً للقوة إلى حوار معقد (ومتضارب عادةً) بين الاضطهاد والمقاومة، بين الرأسمالية والنزعة التسووية، بين القالب النمطي والتمثيل الذاتي.

مع نضج الولايات المتحدة ومبادرتها إلى إطلاق مهمات عسكرية فيما وراء البحار واستيعابها لموجات أكثر تنوعاً من المهاجرين، باتت العنصرية أكثر حذلقة وصارت متزايدة التناقض مع عقائدها الثابتة الخاصة - راحت جماعات مهاجرة مستوعبة ثقافياً، مثلاً، تتخذ مواقف عنصرية من القادمين الجدد فيما تمخضت الحملات الإمبريالية عن إملاء وجهة ممارسة العنصرية دائمة الحضور وإن باتت مترابطة ترابطاً عضوياً في الغالب مع العنصرية ولكن موجودة أحياناً في فضاءاتها الفلسفية الخاصة. على الدوام ظلت العنصرية قابلة الربط بالروايات المؤسِّسة للولايات المتحدة.

يبقى العرب بأكثريتهم - مقارنة باليهود والإيطاليين، مثلاً - مهاجرين جدداً إلى الولايات المتحدة. مازلنا في غمرة المثاقفة المعقدة (الكريهة أحياناً)، عملية تعرضت لها كل جماعة عرقية قادمة إلى العالم الجديد، بطريقة أكثر سلاسة ويسراً بالنسبة إلى البعض مقارنة بالآخرين، بالاستناد إلى الدين ولون البشرة. يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة كانت لها مصالح سياسية واقتصادية في العالم العربي أدت إلى تعقيد وضع العرب في المجتمع الأمريكي، الذي يجري تعليمه عبر وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية فن الحقد على العرب. وعلاقة الولايات المتحدة الوثيقة مع إسرائيل، ذات التقاليد الخاصة بها من العنصرية المعادية للعرب، تزيد الأمور تعقيداً. والفصول التالية ستقوم بمعاينة السياسة الخارجية، الرأسمالية، الإمبريالية، استيطان العالم الجديد، رُهاب

الأجانب، الدين، والهجرة لإلقاء الضوء على كيفية قيامها بخلق العنصرية المعادية للعرب وإدامتها.

عنصرية معادية للعرب؟

قد يكون التوقف قليلاً لمعاينة ملامح الجالية العربية الأمريكية السكانية وبيان طريقة استخدامي لعبارات مثل: **عربي**، **عنصرية معادية للعرب**، **ورهاب الإسلام** مفيداً. فالسعي إلى إيجاد سياج سوسيولوجي حول أي جالية عرقية وتحديد عبارات قابلة للقولبة والطَّرْق (وشديدة الذاتية) لا يؤدي أحياناً إلى ما هو شديد القرب من اللايقين، غير أن من المتعذر مناقشة عنصرية معاداة العرب على نحوٍ صحيح ما لم نقم بتحديد معناها نظرياً والتعرف على الجهة التي تستهدفها وتتوجه ضدها. من الحصافة، على أي حال، أن نتذكر أن الباحثين الزنوج دأبوا على تعريف العنصرية منذ عقود دون الاتفاق على أي تحديد شامل، وبعد مئات الكتب عن الموضوع، مازال مضمون نزعة العداء للسامية خاضعاً لقدرٍ حيوي من الجدل. وبالتالي فإنه من المحتمل لهذه المحاولة- وهي الأولى في صيغة كتاب مطول، صدق أو لا تصدق - الرامية إلى مَفْصَلَة صيغة فكرية لتسليط الضوء على العنصرية المعادية للعرب ومساءلتها أن تتعرض في المستقبل لسلسلة من التحديات وعمليات إعادة الصياغة المتكررة. أقله آمل أن يتم تحدي عملي هذا وإعادة صياغته، لأن نجاح الكتاب لا يمكن أن يقاس إلا بالصدى الذي يُحْدثه. ما هو أهم أن ذلك سيعني أن الناس يتحدثون فعلاً عن العنصرية المعادية للعرب على نحوٍ منهجي لا في عزلة بوصفهم

أفراداً. ظلت العنصرية المعادية للعرب موجودة في الولايات المتحدة منذ وصول العربي الأول إلى أمريكا الشمالية، إلا أنها ما لبثت، منذ 9/11، أن باتت - إذا استخدمنا عبارة دارجة - فيل أمريكا في غرفة الجلوس - وهو فيل عملاق بالمناسبة.

العرب موجودون في الولايات المتحدة، أقله، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر. عدد كبير من المهاجرين جاؤوا مما أصبح الآن لبنان، ولاسيما من مناطق جبل لبنان، التي كانت حتى أوائل عشرينيات القرن العشرين جزءاً من سورية. والعديد من هؤلاء السوريين - اللبنانيين، كما يسميهم باحثو هذه الأيام، انتشروا في أقاليم ريفية بالولايات المتحدة وصاروا باعة متجولين؛ ثمة آخرون تجمعوا في مناطق حضرية واقعة في المنطقتين الشمالية الشرقية والغربية الوسطى. شهدت الولايات المتحدة حركة هجرة مطّردة ولكن غير شاملة وطاغية من الشرق الأدنى، لبنان خصوصاً، خلال النصف الأول من القرن العشرين. أعداد كبيرة من السوريين والفلسطينيين أقدمت أيضاً على القيام بهذه الرحلة. (عدد لا يستهان به من المهاجرين الشرق أوسطيين في القرن العشرين ذهب إلى التشيلي، البرازيل، الهندوراس، المكسيك، وبلدان أمريكية لاتينية أخرى). أكثرية من أوائل المهاجرين العرب كانت مسيحية. ومثل نظرائهم المهاجرين الأوربيين غادر هؤلاء منطقة الشرق الأدنى هرباً من الاضطرابات السياسية والفقر و/ أو بحثاً عن أقدارهم في العالم الجديد.

خلال هذه الفترة، دأب المهاجرون العرب، بأكثريتهم، على الذوبان في البوتقة، الأمر الذي لم يحقق إلا قدراً جزئياً من

النجاح. وعملية الذوبان في البوتقة قرار يتخذه المرء عبر معاينة الظروف التي يعيش فيها، غير أنها ليست قضية شخصية مئة بالمئة في أي وقتٍ من الأوقات. لا يتحقق الذوبان في البوتقة بنجاح إلا حين يتم قبول المتطلع إلى الذوبان بوصفه صالحاً من قبل المجتمع الذي يريد دخوله. قوبل المهاجرون العرب بالتمييز من جانب أناس لم يكونوا مستعدين لتمكينهم من أن يصبحوا "أمريكيين" كاملين. والمهاجرين العرب المسلمون واجهوا قدراً أكبر من الصعوبة مقارنةً بنظرائهم المسيحيين؛ لأن دينهم جعلهم يبدون أكثر غُرْبة وأشد خطراً بنظر الأمريكيين الحذرين.

غير أن أعداداً كبيرة من العرب باتوا - بعد حرب 1967 في الشرق الأدنى - أقل حرصاً على الذوبان؛ لأن الأقليات الأمريكية كانت تؤكد كبرياء عرقياً من ناحية، ولأن تأييداً أمريكياً لإسرائيل من ناحية ثانية أدى (بين سياسات أخرى) إلى استعداء العرب الأمريكيين وتمخض عن قدر متحفظ، غير مدروس في الغالب، من خيبة الأمل. كذلك بعد عام 1967، بدأت آليات الحركة السكانية العربية الأمريكية تتغير مع وصول أعداد من المسلمين من اليمن، مصر، العراق، فلسطين ولبنان. وكذلك فإن مسلمين غير عرب من الباكستان، الهند، بنغلادش، إيران، إندونيسيا، وإفريقيا جنوب الصحراء غيروا طبيعة الهجرة إلى الولايات المتحدة، التي كانت في النصف الأول من القرن العشرين مؤلفة من أوربيين في المقام الأول. ومع أن هؤلاء المهاجرين لم يعدّوا أنفسهم عرباً كما لم يبادروا قط إلى التوحد الفعلي مع المهاجرين الشرق أوسطيين، فإنهم ساهموا في تعزيز الشعور العام بالاعتزاز بكل من الإسلام

والشرق. ثم ما لبثوا أن أصبحوا نشطاء في حركات رفعت شعارات تقاطعت أحياناً مع شعارات العرب.

تكمن أهمية سكان الولايات المتحدة من المسلمين غير العرب، بالنسبة إلى هذه الدراسة، في بقائهم غير مفصولين بحدود واضحة عن الجالية العربية الأمريكية. يضاف إلى ذلك أن علينا، نظراً لأن أكثر العرب مسلمون (نحو نصف العرب الأمريكيين)، أن نعاين العلاقة بين العنصرية المعادية للعرب وما بات يعرف في السنوات الأخيرة باسم رُهاب الإسلام. فهذا الأخير، رُهاب الإسلام، يبدو متكافئاً بنظر المسلمين، لما تعنيه معاداة السامية بالنسبة إلى اليهود، أقله في توظيفه الراهن: كنوع من الكُره المتأصل للإسلام والمسلمين والحقد عليهما، في مستواه الأكثر أساسيةً وعمقاً. تقول المنظمة البريطانية المعروفة باسم منبر التصدي للرُهاب الإسلامي والعنصرية فير (FAIR) :"لقد أصبح **رهاب الإسلام** أحد أشكال العنصرية المعروفة. يضاف إلى ذلك أن تعبير "**رُهاب الإسلام**" يتقاسم عدداً كبيراً من العلامات الفارقة مع تعبيرات غير دقيقة "معاداة السامية" التي ظهرت أواخر القرن التاسع عشر لوصف مشاعر العداء لليهود"[1]. ومن ثم تعلن فير أن "هذه النظرات المتعصبة والنمطية عن الإسلام تتجلى في عدد من أشكال سوء المعاملة اللفظية/ المكتوبة/ التمييز في المدارس وأمكنة العمل، الإزعاج/ الضغط النفسي والهجمات العنيفة المباشرة على المساجد والأفراد"[2]. هذا التعريف لرُهاب الإسلام شامل وموازٍ، برأي فير، لتعريفات معاداة السامية على المستوى الشعبي. غير أن

هذا التعريف يبقينا، بالرغم من ذلك، مع عدد من المنزلقات الفلسفية.

علينا، أولاً، أن نقرر ما إذا كان رُهاب الإسلام موجوداً لأن الإسلام بنظر كثيرين تعبير متطرف عن الوحشية الجنوبية/ العالمثالثية، أم هو نتاج إعادة تنظيم المسيحية في عصر التنوير وما بعد عصر التنوير. أو إذا كان هذان العاملان، كلاهما، تضافرا في إيجاد رهاب الإسلام (وهنا أوافق على افتراض أن رُهاب الإسلام موجود فعلاً وهو مشكلة حقيقية)، فكيف تفاعلا فيما مضى وكيف يعزز كل منهما الآخر هذه الأيام؟ من شأن صياغة عبارة **رهاب الإسلام** أن يؤدي، ثانياً إلى الالتباس والغموض. فخلافاً **لمعاداة السامية** التي تعني، أو التي صارت تعني، ازدراء متجذراً، تحمل عبارة **رُهاب الإسلام** دلالة الخوف. ومع أن الخوف من المسلمين يسهم، دون شك، إلى التحامل عليهم، فإنني ميال إلى القول بأن من شأن أي تحليل جدي للكره (الصريح والمضمر) الموجه ضد الإسلام وأتباعه يجب أن يكون مسؤولاً عما هو أكثر من مجرد إثارة الذعر أو زرع الجهل. من الجماعات الجديرة بالمعاينة في هذا السياق جماعة أمة الإسلام التي يواجه أعضاؤها آفة العنصرية لأنهم زنوج في المقام الأول، ولكنهم ضحايا رهاب الإسلام أيضاً، في تقاطع واضح بين العنصريتين التاريخية والحديثة يعقِّد أي محاولة لوضع العنصرية في خانة منفصلة حصرية ويكشف عن الطابع المتنافر لتجليات العنصرية الإيديولوجية.

من الضروري، ثالثاً وأخيراً، تحديد الجهة التي يجري توجيه رُهاب الإسلام ضدها. لعل الجواب المباشر هو أنه: الإسلام،

بالطبع، ولكن رُهاب الإسلام يبدو، إذا عاينّا وظائفه المنحازة بدقة، موجهاً أحياناً ضد جماعات غير مسلمة مثل: المسيحيين العرب، السيخ، الهندوس، أو حتى ذوي الأصول الإسبانية - أي كل من يمكن تصوره مسلماً، بما يشير إلى أن رُهاب الإسلام لا ينبثق فعلاً من الضحية بل يعني الجاني مئة بالمئة. ومع ذلك فإن بعض المسلمين - فؤاد عجمي، ابن وراق، كنعان مكية - يبدون متورطين في آفة رهاب الإسلام؛ أقله إذا عزلنا بعض كتاباتهم وأمعنا النظر فيها بالطريقة نفسها المعتمدة، مثلاً، مع رهاب الإسلام لدى المحافظين الجدد. يشير هذا إلى أن داعية رهاب الإسلام ليس، بالضرورة، جاهلاً أو مغسول الدماغ فقط، بل ويوفر إمكانية أن يكون أي مسلم قادراً على توجيه رهاب الإسلام ضد أي شخص غير مسلم؛ لذا فإن تعريفات "المسلم" ذاتها تبقى مراوغة وغير مطردة، داخل الجاليات المسلمة وفي الولايات المتحدة عموماً.

للملاحظة الأخيرة أهمية قصوى عند هذا المنعطف. إذا كان رهاب الإسلام صيغة من صيغ العنصرية موجهة ضد مسلمين، فماذا، إذن، عن أولئك الذين يجري تصور أنهم مسلمون؟ وبالمقابل، إذا كنا قادرين في الولايات المتحدة على تحري ظاهرة نطلق عليها اسم **عنصرية معادية للعرب**، فما علاقة تلك العنصرية برهاب الإسلام؟ من الواضح أن رهاب الإسلام - مفهوماً وتعبيراً - بحاجة إلى المزيد من التحليل المعمق، ولاسيما في الولايات المتحدة، حيث بات استخدامه شائعاً بين الجماعات المؤيدة للإسلام ولكنه متخلف عن أوربا (وخصوصاً بريطانيا) على صعيد الاستعمال الشعبي[3]. بالمثل، لابد لعنصرية معاداة العرب من أن تُمحَّص بقدر أكبر من

العناية والتأني لنتمكن من تحديد معالم بعض الافتراضات والإيديولوجيات التي توحي بها. أرجو أن يبادر آخرون إلى تناول مسألة العلاقة بين هاتين العبارتين - أو تداخلهما المتبادل - بقدرٍ كبير من التفصيل والتوسع. يراودني الشك، عند هذا المنعطف، أن تكون عبارتا **العنصرية المعادية للعرب ورُهاب الإسلام** مستخدمتين عموماً لوصف الشيء ذاته.

أجدني ميالاً، ببساطة، إلى إلحاق تعبير رُهاب الإسلام بمناقشتي لعنصرية معاداة العرب وترك مسألة الفصل في أي مشكلات قد تنشأ للقراء. ما الذي يدعوني إلى تفضيل إلحاق رهاب الإسلام بالعنصرية المعادية للعرب؟ ربما يكشف الجواب عما هو أكثر مما يشي به السؤال. أجدني ميالاً إلى القول إن المسيحيين العرب (وجماعات أخرى تُعَدُّ مسلمة فعلاً وإن لم يكن قولاً (حقوقياً) يُعطون هوية إسلامية في خطاب عدد كبير من عنصريي أمريكا، ممن يسندون كرههم للعرب (أو خوفهم منهم)، أكثر الأحيان، إلى سوء تمثيل الإسلام الطاغي على الثقافة الشعبية الأمريكية. غير أن هذا الكره مستند فعلاً إلى ما هو أكثر من الحدة الدينية، بصرف النظر عما إذا كان أولئك الذين يكرهون العرب والمسلمين يفهمون أصول نظرتهم إلى العالم أم لا (أغامر لأقول بأن الأكثرية الساحقة لا تفهمها). وبالتالي فإن تعبير رهاب الإسلام لن يكتسب ما يكفي من الشمول في أي دراسة لعنصرية معاداة العرب، وإن كانت عبارة **رهاب الإسلام** عبارة قيِّمة يجب فرضها على العامة في الولايات المتحدة. أعتقد أن **عنصرية معاداة العرب** أنسب هنا لأنها تقوم، آخر المطاف، بتأطير أشكال سوء

تمثيل الإسلام، في إطار ثقافة تحامل، كره، واضطهاد أوسع لا تكف عن استحضار صيغة محدّثة من صيغ الرواية الإجمالية التقليدية للعنصرية الأمريكية. لابد لكلمة **عنصرية** من أن تكون جزءاً من قاموسنا إذا أردنا أن نقرن بنجاح بين العرب وغيرهم من ضحايا تلك الرواية الكبرى. أما إذا اختزلنا نقاشنا إلى تشويهات الإسلام فقط (وهي عامل مهم، ولكنه أبعد من أن يكون شاملاً)، فإنه سيتعين علينا بالضرورة أن نحوِّل تركيزَها من الولايات المتحدة إلى أوربا والتشعبات اللاهوتية للنزعة الصناعية والإمبراطورية.

ينطلق خطابي هنا من فرضية أن هناك شيئاً أمريكياً فريداً حول العنصرية المعادية للعرب في الولايات المتحدة. وبعبارة "أمريكياً فريداً" أريد أن أقول إن عنصرية معاداة العرب في الولايات المتحدة اليوم منظمة داخل قوى تاريخية محددة أنتجت العنصرية في العالم الجديد وأدامتها عبر مراحل تطور الولايات المتحدة. سأناقش تلك القوى التاريخية بقدر أكبر من التفصيل في الفصل الثاني، أما الآن فيكفي إقرار حقيقة أن العرب والمسلمين، على حد سواء، ورثوا تاريخاً معيناً وحملوه معهم حين انتقلوا إلى الولايات المتحدة، ومن شأن معاينة الوضع الحالي لعنصرية معاداة العرب دون تقويم ذلك التاريخ أن تكون حماقة.

إن جزءاً من التاريخ الذي ورثه العرب والمسلمون حصل خارج الولايات المتحدة. وعملية ظهور العنصرية وتطورها في أمريكا الشمالية كانت ذات تأثير في العديد من الجماعات العرقية و/ أو المهاجرة إلى الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن العرب والمسلمين اليوم

يرون شيئاً شبيهاً بقالب جغرافي - سياسي معدل طالما أثَّرَ في صورة العرب لدى الأمريكيين. وهذا القالب أو الأنموذج الجيو - سياسي يبدأ بقرصنة مسلمين معينين أواخر القرن الثامن عشر بالقرب من شواطئ البربر، أطلقت عاصفة من نيران النقد الحاد على ألسنة من يُعرَفون باسم الآباء المؤسسين في أمريكا ضد مَنْ عَدّوهم برابرة إسلاميين. وبأشكال عديدة، ما لبث الاشتباك الأمريكي المبكر مع المسلمين بالقرب من شواطئ البربر وما رافقه من تسويغ أخلاقي غادر ضد تجار رقيق عرب مزعومين، أن تمخض عن وعي جرى إنعاشه مجدداً لدى هجرة العرب إلى أمريكا الشمالية بعد عقود. يمكن القول إن لعنصرية معاداة العرب جذوراً متعددة وهي موروثة من ناحية ومفعَّلة جيو - سياسياً من ناحية أخرى.

ما الذي تعنيه، إذن، عنصرية معاداة العرب؟ لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال؛ أستطيع فقط أن أبين ما أعنيه حين أستخدم العبارة في هذا الكتاب. أستخدمها عموماً لتعني أفعال عنف مادي ضد عرب لا على أساس الصدفة بل عموماً (أو حصرياً) على أساس الانتماء العرقي للضحية؛ لحظات تمييز عرقي في المدارس، المؤسسات المدنية، وأمكنة العمل؛ النظر إلى العربي بوصف آخر من منطلق إيديولوجية مجوهرة أو محددة بيولوجياً؛ إضفاء الصفة الشمولية على العرب وتجريدهم من الإنسانية عن طريق مواصلة الإشارة إليهم على أنهم إرهابيون؛ تهميش العرب وفقاً للتصورات الأمريكية الإقصائية؛ وصم العرب بنعوت من قبيل **زنوج الرمال، سود الكثبان، سُياس الإبل، أصحاب الرؤوس الملفوفة بالبشاكير والخرق**؛ تحديد العربي من خلال

الاسم، الدين، أو مسقط الرأس؛ وإلغاء الحقوق المدنية من منطلق عدم الثقة بالجماعة كلها بدلاً من حصر الشك بأفراد قد يكونون جديرين بمثل هذا الشك. باختصار، إعادة توجيه العنصرية الأمريكية الكلاسيكية ضد جماعة عرقية ملونة (من غير البيض) تنتمي إلى منطقة من العالم مرشحة للاستعمار من قبل الولايات المتحدة، منطقة يجري تجريد سكانها من إنسانيتهم تنفيذاً لمتطلبات الضرورة السياسية. لا شك في أن بعض الأمثلة التي أوردتها أعلاه لا تشير إلى العنصرية بالذات أحياناً، غير أنني سأجادل فيما بعد أن كل مثال من الأمثلة مستوحى، بهذا القدر أو ذاك، من مواقف عنصرية لا تستطيع الصمود أمام أي تمحيص عميق.

ليست عنصرية معاداة العرب، مع ذلك، مؤسسة منطوية على ذاتها (إذا أمكن حتى تسميتها مؤسسة). إنها دائمة التشابك الجدلي مع أنماط أخرى من العنصرية (الأمريكية منها والأوربية)، كما مع كل من الكولونيالية، الرأسمالية، القومية، الاستثنائية، والأصولية الدينية. يتعين على أي تعريف لها أن يتغير بالضرورة للتعبير عن العوامل المتغيرة التي تسهم في تطورها، وإن كان من الممكن القول، آخر المطاف، أن تعريف أي نمط من أنماط العنصرية ليس إلا ممارسة أكاديمية لأن كل من تعرض للمعاملة العنصرية يعرف تماماً وقت حصولها وماهيتها، بالرغم من صعوبة تعريفها في كتاب أو في مناقشة. فضحية العنصرية يخضع عادة لنوع آخر من التطور الفكري مختلف عن نظيره لدى المنظِّرين البيض: تطور قائم على أساس معرفة أن الهوية ذات شأن، وشأن خطير، وأن

تحويل الغضب إلى خطاب اجتماعي متاح ليس تحركاً بسيطاً كما يصوره الأكاديميون المتنعمون بالامتيازات.

اسمحوا لي أن أستطرد قليلاً وأبيّن السبب الذي منعني ببساطة من السعي إلى إعادة صياغة عبارة **الاستشراق** التي تعرضت، بالطبع، للإدانة من جانب إدوارد سعيد في كتابه الذي حمل الاسم نفسه. كانت كلمة **الاستشراق** واضحة الجدوى بوصفها نقداً وصفياً لسلسلة ظواهر تبدأ بعمليات تشويه صورة العرب وتصل إلى السياسيات الخارجية الطائشة، وقد تزايد استخدامها (على نحوٍ مسوغ تماماً) بين العرب الأمريكيين في ولايات ما بعد 9/11 المتحدة. غير أن الكلمة تبقى مثقلة بأعباء نظرية وتاريخية ثقيلة جاعلة إياها، أقله في بعض الدوائر الفكرية، منحرفة أو متناقضة. نظراً لدلالاتها المتراصفة والنزاعات حول معناها، يمكننا أن نتحرى في استخدامها احتمال الانزلاق أو عدم الدقة البلاغي المتولد عن مقصد تحريري أو بلاغي متناقض أو منحرف بالمثل. والأهم من كل شيء هو أن **الاستشراق** ليست هي الكلمة المناسبة مئة بالمئة حين نكون عاكفين على دراسة تأثيرات التنميط والتعصب في عرب أمريكا الذين يكونون، على نحوٍ شديد الاختلاف عن أشقائهم في العالم العربي، بحاجة لأن يوضعوا في تراث كانوا ورثته جزئياً. وذلك التراث، وهو أمريكي بفرادة، ينطوي على اعتقال اليابانيين الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية، معاداة للسامية ممأسسة حتى ستينيات القرن العشرين، ورُهاب أجانب استثنائي الدوام استمر عقوداً مع مبادرة جماعات مهاجرة مغسولة الأدمغة إلى توجيهه ضد القادمين الجدد. وهذا التراث مستلهم

جزئياً، بالطبع، من تراث موازٍ، تراث المستوطنة القلعة، العبودية والحماسة المسيحانية المهدوية، تراث تطوَّرَ إلى ملامح ملموسة للروح الأمريكية الحديثة التي، خلافاً لتواريخ المهاجرين، تؤثر فعلاً بطريقةٍ أو أخرى في عرب الشرق الأدنى. هذا التراث الموازي كان مصدر إلهام النبرات ما قبل الألفية المترددة أصداؤها بمثل هذا الوضوح في السياسة الخارجية الأمريكية.

أين تقع عنصرية معاداة العرب؟ أو، بقدر أكبر من الدقة، هل نحن عاكفون على الكلام عن العنصرية المعادية للعرب كما تقع في العراق، مثلاً (حالات تعذيب السجناء في أبو غريب)، أم داخل حدود الولايات المتحدة فقط؟ هذه وتلك. سأجادل أن أمثلة العنصرية الأمريكية في العالم العربي وحالات العنصرية ضد العرب في الولايات المتحدة متناظرة وقابلة للتبادل. هذه وتلك تخرجان من رحم الإطار الفكري نفسه، وحين تحصل عنصرية معاداة العرب في الشرق الأدنى فإنها تعزز النزوع إلى ممارستها في الولايات المتحدة. علاوة، سأتجنب، ما استطعت، الهويات المركّبة عبر الكتاب متحدثاً عن "العرب" بوصفهم عرباً، سواء أكانوا يعيشون في الولايات المتحدة أم في العالم العربي (مع أن الفصل الثاني يتركز أساساً على الجالية العربية الأمريكية). سأقدم العديد من أمثلة العنصرية المعادية للعرب في القارتين كلتيهما رابطاً إياها بالآلية الإيديولوجية نفسها.

أستخدم كلمة **العرب** التي تميل إلى أن تكون عامة، سائبة، إذن، للإحاطة بعرب الشرق الأدنى/شمال إفريقيا، عرب أمريكا،

والمسلمين، استطراداً (لأن أكثرية العرب مسلمون ولأن الخطاب الشعبي يجمع الطرفين ويكاد لا يفرق بينهما). مشمولون أيضاً في نقدي إلى حدٍّ معين شرقيون آخرون يجري خلطهم مع العرب بوصفهم مصادر خطر سود العيون بالنسبة إلى الأمن القومي الأمريكي: أهل وسط آسيا وجنوبها، إيرانيون، أندونيسيون، وأقوام سمراء أخرى مبعثرة على طول العالم الإسلامي وعرضه. سوف نرى أن قابلية التبادل المزعومة بين العرب والمسلمين من سائر الخلفيات العرقية ليست إلا نتيجة عنصرية معاداة العرب. تبقى كلمة عرب بالغة الحدة، بالطبع، كما بين أنور ماجد[4]. غير أننا سنركز مناقشتنا على مفهوم أن أي عربي آت من إحدى الدول الاثنتين والعشرين في شمال إفريقيا وغرب آسيا، على الرغم من أن العنصرية المعادية للعرب أكبر بكثير من هذه المنطقة الواسعة جداً.

دور عرب أمريكا

إن الجالية العربية الأمريكية في وضع مناسب يؤهلها لمعاينة عنصرية معاداة العرب، لأن أمريكيين كثيرين من أصول عربية عاشوها ولأن وجودنا في الولايات المتحدة أسهم في تعجيل عملية تشكلها. في حالات كثيرة أتاح وجود عرب في الولايات المتحدة للسياسيين فرصة تبرير تشريعات بالغة السوء واتباع سياسات داخلية وخارجية غير قابلة للتصور لولا هذا الوجود. بهذا المعنى، نجد أن أناساً حريصين على رخاء الولايات المتحدة مورطون في العنصرية المعادية للعرب لأنهم يخفقون في إدراك الدور الذي تلعبه زحمة مبادرات حكومية كارثية (قانون المواطن، حرب العراق، التأييد المستمر للتطهير العرقي الإسرائيلي، وما إلى ذلك).

منذ 9/11 أصبحت الجالية العربية الأمريكية موضوع اهتمام كبير بشكلين رئيسين: دليل خطر دائم الحضور بنظر المحافظين الجدد، ودليل الحاجة إلى تقليص سوء التصرف الداخلي والحفاظ على الحريات المدنية بنظر الجماعات المسكونية والتقدمية. ومع أن عرب أمريكا ليسوا حاصلين، برأيي، على المجال الضروري في الولايات المتحدة لمَفْصَلة جملة حساسياتنا الثقافية والسياسية المتنوعة، فإننا، دون شك، في قلب آلاف الحوارات القومية بقطع النظر عن نزوع المحافظين الجدد والتقدميين على حدٍّ سواء إلى اختزالنا إلى مجازات تسوّغ برامج سياسية مختلفة. وفي حين أن الجميع يستطيعون بالتأكيد توفير مناقشة مثيرة لعنصرية معاداة العرب، أجدني ميالاً إلى الزعم بأن العرب الذين عاشوا هذه العنصرية، وحدهم، هم القادرون على تحريرها من الوهم بالقوة التي تتطلبها. علينا أن نتذكر، بالرغم من ذلك، أن العنصرية المعادية للعرب مشكلة قومية لا لمجرد كونها تعني الوجود المستمر للعنصرية، بل ولأن العنصرية تقوم على الافتراض المسبق لعدد كبير من قضايا التخطيط السياسي ذات الأهمية القومية البالغة.

ليس هناك أي نقص في العرب المؤهلين لتولي مهمة تفكيك عنصرية معاداة العرب في الولايات المتحدة. وكما هو الحال مع أقليات أخرى يبقى حجمنا الإحصائي موضوع جدل ذي شأن. فحسب إحصاء 2000 يصل تعداد عرب أمريكا إلى 1.2 مليوناً، وهو رقم يجعلنا أقل من 1 بالمئة من السكان. غير أن منظمات أخرى تورد رقماً أعلى بكثير استناداً إلى عيوب كثيرة في الحسابات الإحصائية. وعلى الرغم من أن عرب أمريكا ظلوا يصنَّفون أفارقة،

آسيويين، وآخرين عبر تاريخنا، فإننا مصنفون الآن رسمياً "بيضاً" في وثائق الإحصاء، بما يحيل العديد من عرب أمريكا على هذه الخانة لأنهم يخفقون في ملء البند الخاص بالجذور القومية/ السلالية (جراء غسيل الدماغ، الخوف، اللامبالاة، أو التقية عادة). يضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من عرب أمريكا يرفضون حتى إكمال ملء استمارة الإحصاء خشية التعرض للمضايقة أو الترحيل إذا سجلوا أنفسهم رسمياً. (وقد تأكدتْ هذه الخشية حين روت **النيويورك** تايمز قصة، تتعرض في الحالات الأخرى لقدرٍ كبير من الإهمال، في تموز/يوليو 2004، عن أن مكتب الإحصاء يزود وزارة الأمن الوطني بمعلومات تفصيلية عن العرب الأمريكيين، في تطور مرعب برَّرَه ناطق باسم المكتب زاعماً أن تلك وسيلة ضرورية لتحديد المطارات التي يجب تزويدها بلافتات باللغة العربية)[5]. للولايات المتحدة أيضاً مصلحة في تقليص عدد عرب أمريكا تماماً كما تفضل اختزال أعداد الهنود الحمر.

يزعم معهد جيمس زغبي العربي - الأمريكي (AAI)، وهو أحد المعاهد السكانية الطليعية في البلاد، أن عدد العرب الأمريكيين يصل إلى ما لا يقل عن 5.3 مليوناً، وقد يكون أكثر على نحو ملحوظ[6]. وكذلك فإن لجنة مناهضة التمييز الأمريكية العربية (ADC)، كبرى منظمات مناصرة عرب أمريكا، تورد رقماً مشابهاً. وجل الإعلاميين يميلون إلى اعتماد أرقام الإحصاء لدى الحديث عن إحداثيات الجالية العربية السكانية، بالرغم من أن كثيرين يشيرون إلى التضارب بين أرقام الإحصاء وأرقام معهد زغبي. أعتقد أن من شأن أخذ الطلبة، غير المجنسين، والمهاجرين

غير المجنسين العرب في الحسبان أن يوصل تعداد الجالية العربية في أمريكا (الولايات المتحدة) إلى ما لا يقل عن 4 ملايين. ستبين دراسات سكانية أشمل في المستقبل زيادة عددية حادة، ولاسيما حين تصبح الأجواء القومية أقل ابتلاء بعلة الريبة.

إن عرب أمريكا ذوو مستويات تعليمية أعلى من الكتلة الإجمالية لسكان أمريكا. وعلى العموم فإننا نحقق دخلاً عائلياً ومتوسطاً أكبر، مع أن في عدد من مدن أمريكا منها دترويت، نيويورك وشيكاغو أحياء عربية - أمريكية عمالية. ومعهد (AAI) يزعم أن 23 بالمئة فقط من عرب أمريكا هم مسلمون[7]، غير أنني أرى أن النسبة أعلى بكثير، ربما تصل إلى نحو 60 بالمئة. أكثر عرب أمريكا يوردون لبنان بوصفه بلدهم الأصلي، وبعده سورية، مصر، فلسطين، العراق واليمن. تتمتع كاليفورنيا بأكبر عدد من العرب الأمريكيين، تليها متشيغان، نيويورك، فلوريدا، ونيوجيرسي[8]. تتمتع بلدية واين (دترويت) بأكثف تمركز لعرب أمريكا؛ وتتمتع بلدية لوس أنجلوس بأكبر كتلة سكانية عربية أمريكية[9].

تتصف الجالية العربية في أمريكا بقدر ملحوظ من التنوع. وبالتالي فإن النزعة الاختزالية الدائمة التي يقدم بها الإعلام الشعبي صورة عرب أمريكا مربكة وقد يكون وصفها باللامسؤولية والخبث أكثر دقة. وفي حين أن إلقاء الضوء على تنوعنا واحد من أساليب عرب أمريكا في التصدي للتنميط الذي يعزز العنصرية، أعتقد أن ما هو أكثر بكثير مطلوب وضروري. من شأن تحرير الولايات المتحدة من عنصرية معاداة العرب أن يتطلب ما ليس أقل

من استئصال سائر أشكال العنصرية، إعادة كتابة مستمرة لتاريخ أمريكا المثقل بالخرافات، إعادة صياغة السياسة الخارجية المتعصبة والمتعجرفة قومياً، اعتماد إصلاحات اقتصادية كاسحة تضع الإنسان المستهلك فوق المنتجات التي نستهلكها. باختصار، سيتطلب الأمر إعادة صياغة عميقة لكل ما هو أمريكي في العمق. سيتعين علينا أن نبدأ بإعادة توطين أقوام أمريكا الشمالية الأصلية في المناطق التي هُجِّروا منها والتصدي بعد ذلك لمؤسسة العبودية والإمبريالية في الخيال الأمريكي.

هل هذه المهمات ممكنة الإنجاز؟ ربما لا. غير أن النزاهة والاستقامة الفكريتين تقضيان بأن تكون تلك نقطة البداية.

استيعاب العنصرية، تجاهلها، وتبييض صفحتها

قبل المبادرة إلى تنفيذ هذا المشروع، نواجه سلسلة متنوعة الحلقات من المآزق المحتملة. لعل الأول والأهم شائع أيضاً في مشروعات مناهضة العنصرية: إنه مأزق العقيدة الجامدة المفروضة ذاتياً. وهذا المأزق جدير بالتوضيح للحظة. إنني حذر من الخطابات الفكرية التي توصي ثم تطالب بالامتثال للنموذج الإرشادي المعاصر السائد. قام عدد كبير من اليهود - على صعيد تحليل اللاسامية، مثلاً - بخلق مفهوم موازٍ لكره ذاتي يهودي ينطبق على أولئك الذين يرفضون أو يتحدون المعتقدات الجامدة السائدة القائمة على حق تقرير المصير اليهودي كما هي متجذرة في مختلف التيارات الصهيونية. وبالمثل فإن زنوج أمريكا تعرضوا لنوع من التصنيف التراتبي في خانتي أفارقة من جهة ودعاة اندماج

(بمن فيهم محافظون جدد مثل: كليرنس توماس وكوندوليزا رايس) من جهة ثانية. ومع أن عدداً كبيراً من الحوارات الجارية داخل الجاليتين اليهودية والزنجية تتصف بما يكفي من الحيوية لتعزيز الأجواء الفكرية والاهتمامات السياسية لدى تينك الجاليتين، فإن آفاق الحوار التي تبدي مرونة تعميم أخلاق المشروعية تنطوي على أضرار تفوق الفوائد.

خذوا بعض الآراء الشعبية عن الصفة اليهودية التي تنشرها الجماعات الصهيونية اليمينية المنتمية إلى التيار الرئيس. إنها تضع إسرائيل في صدر أولويات الوعي اليهودي، وهو أمر ليس غريباً كما ليس إشكالياً، نظراً للسياسة المعتمدة من قبل هذه الجماعات. غير أنها تصر، وهي تفعل ذلك، على مطالبة جميع اليهود الآخرين باعتماد صورة اليهود التي تتبناها هي عن نفسها. واليهود الذين يترددون يُنعتون بـ "كره الذات" بما يعني أنهم فقدوا حقهم في مناقشة الحساسيات اليهودية وباتت ادعاءاتهم القائمة على امتلاك هوية يهودية ادعاءات سطحية غير ذات معنى. أما غير اليهود الذين ينتقدون إسرائيل فتتم إدانتهم ببساطة (بحماسة أخلاقية) بوصفهم معادين للسامية يتعذر شفاؤهم. وهذا النوع من الخطاب الشمولي لا يكتفي بإعاقة تحقيق العدل في الشرق الأدنى، بل ويؤدي إلى إضعاف الادعاءات المشروعة ضد **اللاسامية**؛ لأنه أشبه باستغاثة الراعي الكذاب - يغدو أولئك الذين ظلوا يسمعون تكرر وصم أناس شرفاء وأذكياء باللاسامية لمجرد إدانتهم لحملات التطهير العرقي الإسرائيلية مصنفين في خانة المشبوهين لدى النطق بعبارة اللاسامية. وأولئك الذين دأبوا على محاربة

اللاسامية بهذا التكتيك إنما قاموا، بالفعل، بتقويض مساعيهم الرامية إلى إدخال الظاهرة في وعي العالم. لعل ما هو أهم أنهم أوجدوا فضاء سجالياً يلزم معارضي الكولونيالية، أخلاقياً، بأن يصبحوا لا ساميين، استناداً إلى تطور مدلول عبارة **اللاسامية**.

بالطبع، تبقى فرصة تكرار هذا الوضع في الجالية العربية الأمريكية بالغة الضآلة. فعنصرية معاداة العرب قضية سياسية أحدث من أن تثير مثل هذا الشجار الداخلي؛ ويضاف إلى ذلك أن الضرورة الأخلاقية لفلسطين حرة أقل إثارة لإشارات الاستفهام بما لا يقاس مقارنة بالعنصرية الكامنة في أساس التعريفات الصهيونية للاسامية. وبعبارةٍ أخرى، فإن الجالية العربية الأمريكية تستطيع محاربة عنصرية معاداة العرب بضمير مرتاح لأن خطابنا المعادي للعنصرية بريء من لوثة العنصرية التي تزخر بها جوانب كثيرة من الصهيونية الحديثة. غير أن علينا ألا ننسى أن مفاهيم الشرعية تنحدر عادةً إلى أنانية معطِّلة. حاسم أن نبقى مركزين على هدف اجتثاث عنصرية معادية للعرب عميقة الجذور بدلاً من مجرد الاكتفاء بمصداقية المتحدث وهو يدرج قائمة المعايير التي رسخها آخرون للحكم على وجوده. ومع أنني أمقت كتابات باحثين مثل فؤاد عجمي، لا يكف خطابهم عن شَرْعَنة عنصرية معاداة العرب، فإنني أرفض نعته بكُره الذات أو عدّه أي شيء أقل من عربي[10]. فمن شأن ذلك أن يتمخض عن صيغة فكرية دوغمائية، بصرف النظر عما إذا كنت سأعلن صيغة كهذه أم لا، لأن العقيدة الجامدة (الدوغما) ستكون متجذرة في النقد. أولئك الذين يعارضون عجمي

يستطيعون أن يتحدوه بفصاحة دون الإجهاز على تنوع العرب والجاليات العربية الأمريكية.

يطيب لي هنا أن أشير إلى أن هذا ليس كتاب تاريخ - أي ليس على صلة بأي منهجية تأريخية. وليس في الوقت نفسه عملاً متخصصاً في نظرية النقد. ليس، إذا استخدمت مفهوم مونتاني للكلمة، إلا مقالاً عن طغيان العنصرية المعادية للعرب وعما يمكن القيام به لمقاومتها بفعالية. سأقوم بتوثيق أمثلة مختلفة لعنصرية معادية للعرب مستمدة من تقارير إعلامية وشهادات شفوية وبالتنظير لوجود عنصرية معادية للعرب في خطابات ومؤسسات لا يعدها جل الأمريكيين عادةً خطابات ومؤسسات عنصرية. ستكون النقطة الأخيرة حاسمة في الفصول القادمة. فخطر العنصرية الأكبر يكمن في أنه عادي ومبتذل. وبعد معايشة جميع أنواع العنصرية، أستطيع تأكيد أن العنصرية تصل إلى أقصى مستويات اللؤم حين تصبح خبيثة وماكرة بما يمكّن من تقديمها على أنها آية انفتاح وتنور.

أتذكر مثالاً حديثاً من هذا النوع من العنصرية صادفته مؤخراً. أعيش في ماديسون، ويسكونسن، وحديثاً اكتشفت إذاعة ماديسون الرائعة، (WORT)، التي أدمنتُ الاستماع إليها. فهي توفر بديلاً مستساغاً للمحطات التعاونية التقليدية على نحوٍ مقزز التي هي عديمة الجدوى باستثناء نشراتها الجوية بين الحين والآخر. شعرت بشيء من الإحباط ذاتَ بعدَ ظهرٍ وأنا عائد بسيارتي حين سمعت ضيفاً لبرنامج محلي بعنوان **شأن عام** يعبر عن موقف

مستلهم إلى حدٍّ ما من مزاج مضمر يشي بتفوق البيض موقف كان بالتالي - عنصرياً من حيث التأثير وإن لم يكن من حيث المضمون.

كان ضيف البرنامج يتحدث عن حالة حركة مناهضة الحرب في ماديسون وقد طُلب منه أن يتقاسم في تعليقاته الختامية بعضاً من الأخطاء التي اقترفتها الحركة في الأشهر التي سبقت غزو العراق مع المستمعين. بعد سوقه عدداً من الأجوبة النموذجية المألوفة - غير الواضحة كفاية، غير الضاغطة على السياسيين على نحوٍ ناجح - أفاد بأن أسوأ الأخطاء التي كان هو وآخرون قد ارتكبوها تمثل بخطأ عدم إشراك العراقيين الأمريكيين بالحركة. قال منفعلاً: "كثيرون لا يعرفون الحقيقة، غير أن هناك بعض العراقيين في ماديسون". وتابع ليجادل بأن من المهم تماماً الاحتكاك بالعراقيين وضمهم إلى نشاطات معاداة الحرب لأنهم كانوا - لسببٍ ما - غائبين غياباً لافتاً، لعل الاحتمال الأقوى هو أن أحداً لم يقدّر أهمية التواصل معهم.

كان تعليل الضيف فاضح الخطأ. أنا لا أزعم أنني أعرف السبب الكامن وراء إحجام عراقيي ماديسون عن الانخراط في المنظمات التقدمية المعارضة للحرب؛ يمكنهم فقط أن يقولوا - كما يمكن لشخص لا يعرف شيئاً عنهم حتى يخمن بدلاً منهم، أن يقول: إنه غير مستساغ، إذا استخدمنا العبارة المهذبة. يمكنني أن أقدر أن العراقيين تجنبوا تلك المنظمات، مثل أكثرية منظمات ماديسون التقدمية، لأنها بيضاء بأكثرية أعضائها وجميع قادتها. كذلك تغافل الضيف احتمالاً لا يتناغم مع حساسياته: عدد كبير، أو العدد

الأكبر، من عراقيي ماديسون ربما كانوا مؤيدين للحرب إلى حدٍّ معين. كان ذلك التأييد دون شك لأسباب مغايرة لأسباب أمريكية الخبز الأبيض والمحافظين الجدد، غير أنها لم تكن متناغمة أيضاً مع المعارضة التقدمية للحرب. أعداد كبيرة من عراقيي أمريكا لاجئون سياسيون. كثيرون منهم تعرضوا للتعذيب والاضطهاد من قبل نظام صدام حسين. ثمة آخرون لهم عائلات في العراق دأبت وحشية صدام على استغلال أمنها. علينا أن نتذكر أن معاون وزير الدفاع بول ولفوفيتز قام، قبل الحرب، بزيارة مركز لإحدى الجاليات العراقية في ديربورن وشُجع على غزو العراق لإطاحة صدام (غير أن عرب أمريكا كانوا، عموماً، معارضين للحرب، بالرغم من أن أكثرهم، وأنا منهم، كانوا ميالين إلى التعبير عن معارضتهم في منظماتٍ عربية أمريكية بدلاً من منظماتٍ بيضاء).

من الواضح أنني أستطيع نسيان الضيف الإذاعي بوصفه جاهلاً، غير أن من شأن ذلك أن يحرره من الصنارة - أو، بقدرٍ أكبر من الدقة، من شأنه ترك المزاج الذي أفلت الجهل من الصنارة، ومثل هذا النوع من الأمزجة هو بالتحديد ما يتعين على أي محلل للعنصرية أن يعكف على معاينته. كان خطاب الضيف مشبعاً بالتفوق الأبيض للأسباب التالية:

- أراد إشراك عراقيين في نشاطات مناهضة الحرب لا لفائدتهم هم، بل لفائدة مشروعيته هو بوصفه أحد نشطاء حركة مناهضة الحرب.
- حتى إذا كانت النقطة السابقة غير صحيحة، فإن الضيف عَبّر عن فلسفة وصائية مؤطرة بالإيمان بأنه هو وأشقاؤه نشطاء

مناهضة الحرب يعرفون ما هو جيد بالنسبة إلى العراقيين على نحوٍ أفضل من العراقيين أنفسهم (الموقف الذي سوّغ الحرب التي يعارضها).

- على نحو لا شعوري أذعن لإحساس عريق بنوع من الامتياز الأبيض عبر ادعاء تمثيل الطريقة الفضلى أو الوحيدة لمعارضة الحرب.
- افترض أن عراقيي ماديسون معارضون للحرب بالرغم من أنه (باعترافه هو) لا يعرف شيئاً عنهم، الأمر الذي يضعه - شاء ذلك أم أبى - في خانة المستعمرين الذين يفرضون على المستعمرين (بكسر الميم وفتحها) برامج خيالية خدمة لمصالح الفريق الأول.
- أضفت الصفة الرومانسية على العراقيين في ماديسون كما لو كان يقوم باكتشاف انتروبولوجي دون أي حساب ذي شأن لحساسياتهم الثقافية التي من شأنها، نظراً لأصلهم القومي، أن تجعلهم عموماً حذرين من التورط السياسي، خصوصاً غير المتمتعين بالجنسية الذين يحق لهم أن يخافوا الاعتقال و/ أو الترحيل.

تذكّرني النقطة الأخيرة بأحد اجتماعات رابطة الطلاب العرب (ASA) قبل بضع سنوات في أوكلاهوما حين كنت طالب دراسات عليا. كنا مجموعة متفانية برئاسة طالب دولي فلسطيني لامع لا يعرف معنى التعب يُدعى محمد الرمحي. في ذلك الاجتماع كنا نتجادل حول أفضل سبل رفع مستوى الوعي في المدينة

الجامعية بأعمال العنف الإسرائيلية المدمرة في المناطق المحتلة. بين الحضور كانت امرأة بيضاء، ناشطة تقدمية مندفعة من عائلة ميسورة. باقي أعضاء الرابطة كانوا طلاباً دوليين من الشرق الأدنى مع عدد من عرب أمريكا.

أراد محمد أن يقيم "أسبوعاً فلسطينياً" مؤلفاً من كوة إعلامية، عرض أفلام وثائقية، حفل عشاء، وتقديم نورمان فنكلشتاين محاضراً رئيساً. (وبالفعل فإن فنكلشتاين حضر وألقى خطاباً لافتاً). الطلاب العرب وافقوا على هذه الخطة، إلا أن الشابة اعترضت زاعمة أننا نبالغ في الاعتدال واقترحت إقامة حاجز على الطريق في أكثر شوارع المدينة الجامعية ازدحاماً للفت الأنظار إلى الحواجز الإسرائيلية المعطِّلة للحياة. كانت فكرة وجيهة نظرياً (وقد اعتمدت في جامعة كاليفورنيا. بيركلي مع بعض مدن جامعية أخرى)، إلا أن أناساً في الفريق سارعوا إلى التعبير عن عدم الموافقة. سأل أحد الطلاب الدوليين: "ماذا لو جرى اعتقالنا؟" ردت الشابة: "ذلك هو المطلوب. سيكون ذلك بياناً مدهشاً". ثم ما لبث الاجتماع أن اختتم في جو مشحون بقدرٍ ملموس من التوتر.

أروي هذه القصة لأثبت أن المرأة البيضاء لم تكن متفهمة للحساسيات الثقافية التي كانت بصدد التعامل معها. مثل ضيف إذاعة (WORT) توهمت أنها أفضل من العرب معرفة بما هو خير لهم. لم يخطر لها قط أن للسجن دلالة شديدة الاختلاف بالنسبة إلى العرب مقارنة بها هي الشقراء الأمريكية المنتمية إلى الطبقة العليا التي يستطيع نفوذ والدها إنقاذها من أي احتجاز. كما لم

يخطر ببالها أن الطلبة العرب كانوا أساساً يبدون قدراً من الجرأة لأن آباءهم وأمهاتهم كانوا قد أوصوهم مراراً وتكراراً ألا ينخرطوا في السياسة، نظراً لأن الانخراط في العمل السياسي في العالم العربي كثيراً ما يفضي إلى السجن، التعذيب، بل وحتى الموت.

بعد 9/11، لم تكن الأمور، أفضل بكثير في الولايات المتحدة، وخصوصاً بالنسبة إلى الطلبة العرب، الذين كان من شأن العصيان المدني بالنسبة إليهم أن يؤدي إلى التوقيف دون تمثيل أو الترحيل دون إجراءات قانونية. أو أسوأ بكثير من هذا وذاك كما في حال فاروق عبد المعطي (كان فاروق هذا ناشطاً علمانياً فلسطينياً اعتُقل بعد 9/11، عُذب، واحتُجز في زنزانة انفرادية لمدة زادت عن 8 أشهر)[11].

هل ضيف الإذاعة وعضوة الرابطة عنصريان؟ قد لا يكونان، **بالتحديد، أو حرفياً**. غير أن رائحة التفوق الأبيض الكلاسيكية تفوح منهما، حقيقة يصعب تبريرها. لهذا السبب أرى شرف تفكيك عنصرية معاداة العرب عائداً على نحوٍ مباشر إلى العرب. على امتداد الأعوام الأربعة الأخيرة ظللنا نتمثل بكل من يتوفر على نوع من النزوع إلى التحكم بنا أو إضفاء الصفة الرومانسية علينا. لقد حان وقت مبادرتنا إلى صياغة همومنا وتطلعاتنا الخاصة. ونقص الفضاء الإعلامي اللازم لمَفْصَلة تلك الهواجس والطموحات مرتبط بجملة الحساسيات آنفة الذكر: إلى أن يقلع البيض المسيطرون على طيف واسع من وسائل الإعلام عن الإحساس بالميزة التي تقنعهم بأنهم مؤهلون لينطقوا باسم العرب، ستبقى العملية بالغة الصعوبة.

ونظراً لأني ضئيل القناعة بأن البيض سيتخلون عن مثل هذا الشعور، فإن من الحاسم بالنسبة إلى عرب أمريكا أن يحافظوا على وسائل الإعلام الراهنة ويعملوا على إيجاد منشورات جديدة مكرسة لاجتثاث عنصرية معاداة العرب (مع سائر صنوف العنصرية في الوقت نفسه؛ لأن العنصرية إما أن تُقتلع جملة وتفصيلاً أو تستمر معاناة جميع الملونين).

ومع ذلك، فإن مشكلات تنشأ أحياناً حين يحجم البيض عن أي ذكر للعرب في النقاشات الدائرة حول العنصرية مبيِّضين صفحة العنصرية المعنية. لعل أسطع أمثلة عملية تبييض صفحة العنصرية المعادية للعرب هو فلم **فهرنهايت** 9/11 لمايكل مور، الذي أحدث ضجة خارقة للعادة في صيف 2004. لقد اجتذب **فهرنهايت** 9/11، وهو فلم فضائحي عن عدم كفاءة جورج دبليو بوش حشوداً هائلة في عرضه الأول نهاية الأسبوع. كذلك كان الفلم رائجاً في ماديسون فقمنا زوجي وأنا بقطع تذكرتين يوم الأحد لحضور الفلم يوم الإثنين. لم يكن الفلم جديراً بالانتظار. لقد أحسن روبرت ينسن إذ انتقد ما يطلق عليه اسم "التحليل السيئ" لفلم وثائقي، ملاحظاً أن مور - ملقياً حصة الأسد من الملامة عن حالة الأمة على عاتق بوش والجمهوريين - يكاد يضيّع الحقيقة الثابتة الأهم المتمثلة بأن نزعة المغامرة الإمبريالية التي يدينها بشدة إن هي إلا جزء أساسي من السياسية الأمريكية، وهي حقيقة اضطلع الديمقراطيون بدور كبير في تشكيلها ودعمها[12].

كذلك ينجح ينسن في التعرف على ما يطلق عليه اسم "عنصرية ماكرة" في الفلم، واضحة في المشاهد المحلية لفلاحي

كوستاريكا على ظهور الحمير الصغيرة، وقطعان الحمير المندفعة عبر الصحراء في المغرب. ومع ذلك فإن عنصرية أكثر بروزاً تتجلى في مشهد وجيز ينتقد فيه مور قانون المواطن. ففي شجبه لهذا القانون اختار مور تقديم جماعة صغيرة ذات أكثرية بيضاء تدعى بيس فْرَسْنو ورجلاً أبيض يدعى باري راينغولد. جرى اختراق الجماعة من قبل عملاء تطبيق القانون وقام وكلاء الإف بي آي بزيارة راينغولد بعد انتقاده لبوش في غرفة مغلقة. من المؤكد أن هذه حوادث مؤسفة، غير أنها مفرطة في مطواعيتها إذا كان المطلوب توظيفها لتوجيه نقد شريف إلى قانون المواطن.

أقله كان مور يستطيع أن يأتي على ذكر عنصرية معاداة العرب التي كانت حاسمة في إقرار قانون المواطن والتي تبقى حاسمة لبقائه نافذاً. من متابعة **فهرنهايت** 9/11 قد يتوهم المرء أن بيضاً من الطبقة الوسطى مستاؤون من الوضع. كان مور يستطيع تقديم آلاف العرب والمسلمين الذين اعتُقلوا بموجب "أدلة سرية"، حُرموا من التمثيل الحقوقي، وسجنوا في زنزانات انفرادية أشهراً. ليت الأمر وقف عند حدود اختراق تنظيماتنا نحن العرب وعند تخوم الاستجواب المختصر من قبل عملاء الإف بي آي! فما من عربي ناشط في السياسة، مثل أكثر من ليسوا كذلك، إلا ويعلم علم اليقين أن جميع المنظمات العربية، المدنية منها والسياسية، باتت مخترقة. كان من شأن هذا الجزء من **فهرنهايت** 9/11 أن يكون مكافئاً لمناقشة ممارسات عمل غير عادلة، بدلاً من عرض مستخدمي تايسون أو عمال زراعيين مهاجرين، مقابلة مدير متوسط لا يحصل دائماً على تعويضاته الإضافية أو مساعدة إدارية

يجبرها رئيسها على إعداد القهوة له بالرغم من أن ذلك غير وارد في شروط عقد العمل. صُدمتُ حقاً حين تفجرت دار عرض سينمائية ذات أكثرية بيضاء ساحقة بالتصفيق بعد مشهد قانون المواطن دون انتباه إلى الاحتمالات التي تعامل معها مور إما باستخفاف أو تجاهل.

لن أقول إن مور عنصري؛ العكس هو الصحيح، لقد أجاد في عمله، وخصوصاً في **باولنغ فوركولباين**، لتبديد وهم الخوف من الأقليات الذي يعاني منه المجتمع الأمريكي. لعل مور وقع إما في خطأ تبييض صفحة عنصرية قانون المواطن المعادية للعرب دونما قصد، ويكون عندئذ قد أخفق في تقديم تحليل جدير بالتصفيق الذي ناله من اللبراليين والتقدميين؛ أو هو أقدم على تبييض صفحة تلك العنصرية عن قصد، التماساً للإقناع الخطابي، ويكون عندئذ متملقاً مزاج تفوق أبيض مفترض لدى جمهوره المتخيل؛ وهذا افتراض يتكشف أنه صحيح مئة بالمئة. أشك في أن يكون مور قد تجنب ذكر العرب عن قصد، لأنه كان شديد القلق من احتمال تساؤل جمهوره المنتمي إلى التيار الرئيس عما إذا كان العرب الذين قدمهم كانوا مذنبين فعلاً باقتراف خطأ ما - فهم عرب، آخر المطاف، ولم تكن الحكومة لتطاردهم بفاعلية لو لم يكن في حيهم ما يكفي من الإرهابيين لتبرير المطاردة. أما في تقديم البيض فقد كان واثقاً من أن نقده لقانون المواطن كان من شأنه أن يبلغ الحد الأقصى من التأثير؛ لأن جمهور التيار الرئيس كان سيدرك مدى هزلية استجواب أناس براءتهم واضحة وضوح الشمس والمبادرة إلى تسويغ التجسس عليهم. باختصار، تملق مور عنصرية معاداة العرب

لدى جمهوره المتخيل، الأمر الذي يجعله مذنباً بجريمة تعزيز موقف كان من شأن فلم أفضل أن يستحضره ويعاينه، بدءاً بالتصفيق لخطاب يغفل مضاعفاته الأخلاقية الخاصة.

إن تملق مزاج التفوق الأبيض غاب كلياً عن أكثرية تعليقات التي تناولت الفلم الوثائقي في المطبوعات التقدمية بما فيها مقالة بيتر سوسمانفي آلترنت وكاثا بوليت في **ذه نيشن**[13]. لا يعني هذا كله أن **فهرنهايت** 9/11 فاشل كفلم؛ أغبط مور لأن كثيرين وجدوه ملهماً. غير أننا نبقى مكلفين باستكشاف السبب الذي يدعو هذا العدد الكبير من التقدميين إلى مواصلة انتقاد سياسات معطوفة صراحة على عنصرية العداء للعرب دون ذكر كلمة عنصرية. عند هذا المنعطف، تبدو الرسالة واضحة: إذا كان العرب ينتظرون تقدميين من طراز مور أن يبادروا بحماسة إلى شجب عنصرية معاداة العرب، فإننا سنتعرض جميعاً لعملية الترحيل قبل أن ينبس أي شخص ببنت شفة. لا نستطيع التعويل على البيض، تقدميين وغير تقدميين، في الكشف عما نعرفه سلفاً؛ لعل من الأجدى أن نتكلم بصوت مرتفع عما نعرفه سلفاً لأن أولئك الذين يفترض فيهم أن يكونوا مهتمين بالعرب لا يبدون مدركين لماذا هم مهتمون. يبدو، بدلاً من ذلك، أنهم يفضلون الرمزية الأمريكية القديمة قدم الزمن، رمزية ذكر العرب هنا وهناك حفاظاً على صدقيتهم أو التماساً لحسن النية بوصفهم صليبيين لمصلحة أقليات مضطهدة؛ أو يعكفون على إعادة اختراع طبعة كلاسيكية لتفوق أبيض يختزل جملة المشكلات المعقدة في جاليات الأقليات إلى كل ما يجدونه جديراً بالذكر أو التركيز على مدى تأثير تلك المشكلات في البيض.

ختاماً: أنتم يا أبناء العرب التعساء!

في الختام سأسجل أن لهذا الكتاب - مثل جميع الكتب، كما أفترض - بداية خارج حدود الذاكرة. ومع ذلك فإن ذكرى معينة قد اضطلعت بدور مهم في تشكيله.

أتذكرها كما لو كانت هذا الصباح. نتف زجاج صغيرة تلألأت في ضوء الشمس. استطعت سماع صفق الأبواب.

كان الموسم صيفاً في آبالاشيا. كنت أعشق الصيف أيام الطفولة. كانت بشرتي تكتوي وتصبح داكنة فيلقبني آباء أصدقائي وأمهاتهم بـ "زنجي". لم أكن أبالي. علمني أبي أن أفتخر بزنوجتي. كان أبي يقول: "إنهم يغارون لأنهم لا يملكون ما ينتمون إليه بالرغم من توفرهم على المال. ستفهم عندما تصبح أكبر". أنا الآن أكبر. ومع ذلك لا أفهم.

أتذكر أن الوقت كان حاراً. كانت نظاراتي السميكة الداكنة دائمة الانزلاق على أنفي فيما كنا أخي وأنا نلعب كرة القدم. ركل أخي الكرة إلى ما بعد سياج الجار. ذهبت لأستعيدها.

أتذكر الحادثة أكثر وأنا راشد. أتذكر لمعان الشمس المنعكسة على العصا المرفوعة فوق رأسي. أتذكر كيف هرعت إلى داخل البيت باكياً. أتذكر أبي والأصلع، ذلك الرجل المائل إلى الشيخوخة، واقفين على جانبي السياج، وهما يتصايحان. أتذكر أبي وسيول العرق تنهمر متقاطعة على وجنتيه، وهو يحطم مزهرية خضراء على سطح المرآب.

أتذكر ما أطلق ذلك كله: "أبعد أولادك، زنوج الصحراء أولئك، عن باحتي! لا أريد أن أرى أبناء العرب التعساء أولئك!"

احتجت إلى سنوات كي أتعلم ألا أبقى صامتاً في مثل هذه اللحظات، وإذا نجح هذا الكتاب بطريقة ما في تشجيع آخرين على شجب عملية تجريد العرب من إنسانيتهم، فإنني، عندئذ سأعده واحداً من أكبر نجاحات حياتي. على الرغم من أنني أنفقت جزءاً كبيراً من طفولتي مرتبكاً وحزيناً في اللحظات التي بدوت فيها مصدر تهديد، فإن زمن الطفولة قد ولّى إلى غير رجعة، وأتقنت فن التصدي والمقاومة. كذلك لن أبقى صامتاً إزاء العنصرية مرة أخرى. لهذا السبب سوف أستمر مصدر تهديد إلى أن أموت. أرجو أن يعلنها جميع العرب بالكبرياء التي ميزت أجدادنا: نحن بشر بالرغم من ثقافتنا، بل بسببها، ونرفض أن نذهب إلى أي مكان. في الحقيقة، سنقاتل بأي وسيلة نتوفر عليها حتى نطمئن إلى اضطرار العنصرية الأمريكية، لا وجودنا نحن، للاختفاء في غياهب النسيان.